عَودَةُ النِّعَمِ بَعدَ زَوَالِهَا

لِلتَّاجِ السُّبكِي

تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين
علي بن عبد الكافي السُّبكي
٧٢٧هـ - ٧٧١هـ

مقاصد كتابه (معيد النعم ومبيد النقم) مع تكملته

تحقيق الدكتور
عبد الستار أبو غُدَّة
عفا الله عنه





عَوْدَةُ النِّعَمِ بَعْدَ زَوَالِهَا

لِلتَّاجِ السُّبْكِي



اسم الكتاب: عودة النعم بعد زوالها

إعداد الشيخ: للتاج السبكي - تحقيق د. عبد الستار أبو غدة

رقم الإيداع: ١٨٦١٢/٢٠١٣.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ٦٤.

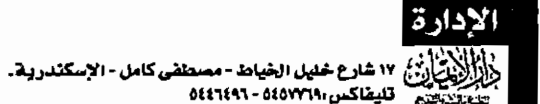
القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف: مكتب دار الإيمان.

٢٠١٣



الإدارة

دار الإيمان

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

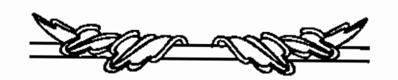
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail

dar_aleman@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق



(أ) المؤلف .

(ب) الكتاب وتحقيقه .

(جـ) المخطوطات .

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه وميلاده :

تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، ولد في القاهرة عام ٧٢٧هـ ، وبعضهم أرخ ولادته عام ٧٢٨ أو ٧٢٩ هـ .

اشتغاله بالعلم :

درس العلوم في مصر عن شيوخ كثيرين منهم والده قاضي القضاة تقي الدين السبكي ، وهو يكثر النقل عنه في مؤلفاته - ومنها هذا الكتاب - ويطلق عليه (الشيخ الإمام) ، وأبو حيان الأندلسي .

وعندما رحل مع أبيه إلى دمشق - حين ولي قضاءها - أخذ هناك عن الذهبي والمزي وابن النقيب .

وظائفه العلمية :

تولى وظيفة توقيع الدست في دار العدل عن نائب الشام الأمير عليّ المارديني، ثم جمع إلى ذلك النيابة عن أبيه في الحكم ، فضلاً عن التدريس ببعض مدارس دمشق ، ثم نزل له أبوه عن وظيفة (قاضي القضاة) بالشام.

علاقاته الاجتماعية :

ذكر ابن حجر العسقلاني أنه حصل للتاج السبكي بسبب القضاء مِحنة شديدة ، مرة بعد مرة ، وهو مع ذلك في غاية الثبات ، ولما عاد إلى منصبه

صفح عن كل من أساء إليه .

ومما يذكر في ترجمته ما وقع من خصومات بينه وبين أصحاب ابن تيمية، وقد كان لهم نفوذ بالشام ، ولهذا عزل عن القضاء أكثر من مرة ، وآخر محنة قد تعرض لها أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار عام ٧٦٩ ، وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة صرفت بوصولات لم يعين فيها اسم القابض ، فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف بأنها وصلت للقاضي أي التاج السبكي ، فأبى وآل الآمر إلى عزل القاضي ، وذلك في فترة كان الأمير المادريني نائبًا لكل من مصر والشام ، وكان التاج السبكي منحرفًا عنه ، فعقد له مجلسًا وحكم بحبسه ابن قاضي الجبل ، وهو من تلامذة ابن تيمية.

منزلته العلمية :

كان التاج السبكي يعتبر نفسه في مرتبة الاجتهاد المطلق ، كما ذكر في أحد كتبه إلى نائب الشام ، ولم يردَّ عليه هذه الدعوى أحد ، كما قال السيوطي.

من مؤلفاته :

١ – جمع الجوامع من أصول الفقه ، وفي آخره نبذة في أصول الدين .

وقد وضعت عليه شروح وحواش كثيرة طبع بعضها .

٢ – تكملة شرح والده التقي السبكي على (المناهج) في الأصول، للبيضاوي .

٣– رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ، في الأصول .

٤ – الترشيح ، جمع فيه اختبارات والده التقي السبكي في الفقه .

٥ – التوشيح على التنبيه .

٦- الأشباه والنظائر الفقهية .

٧- طبقات الشافعية الصغري ، والوسطى ، والكبرى ، وهذه الأخيرة مطبوعة في ٦ مجلدات .

٨- معيد النعم ومبيد النقم ، طبع في مصر مرتبين ، وطبع في ليدن، ثم طبعه محققًا محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ، ومحمد أبو العيون ، ط الخانجي والمثنى .

من مراجع الترجمة :

الدرر الكامنة لابن حجر (٢/ ٤٢٦) البيت السبكي ، تأليف محمد الصادق حسين بك .

وفاته -رحمه الله - :

توفي بدمشق ، عقب إصابته بطاعون عام ٧٧١ هـ ، ودفن بسفح قاسيون بمقبرة السبكية .



التعريف بالكتاب



موضوع الكتاب الأصلي :

(مُعيد النِّعم ومُبيد النِّقم)

يعتبر موضوع الكتاب من الموضوعات النادرة ، فقد كتبه مؤلفه الإمام تاج الدين السُّبكي في صورة برنامج إصلاحي للمجتمع ، مستعرضًا جميع فئاته، حيث بدأ بأولي الأمر ثم استوفى جميع الوظائف التي كانت في عصره مبينًا واجب كل صاحب وظيفة ، وما يقع فيها من خلل إليه يرجع سبب التخلف، وأن الإخلال بشكر النعم هو وراءه مرتكزًا في ذلك إلى قاعدة وجوب التغيير من الداخل كأساس لتصحيح أوضاع المجتمع ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

وقد وضع التاج السبكي هذا البرنامج الإصلاحي استجابة لسؤال من سأله من أهل عصره : هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية إذا سلكها عادت إليه وردت عليه ؟ .

وقد استرسل المؤلف في بيان الجواب عن السؤال وتطرق إلى استعراض الوظائف والمهن في عصره ، وبيَّن ما يتعلق بكل منها من الواجب الشرعي على متوليها ، بحيث غدا كتابه واحدًا من كتب الحسبة ، لما اشتمل عليه من النقد والتحذير من أخطاء الوظيفة أو المهنة على سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والملحوظ أن المؤلف بعد أن شرع في أول كتابه في جواب الاستفسار الذي هو سبب تأليفه للكتاب فسح المجال للوظائف التي فيها مواقف للحسبة، فاستغرق ذلك أضعاف ما قصد من ضرب المثال للشكر الذي تزول النعمة بالإخلال به ، ثم عاد آخر كتابه ليكمل الجواب ، بعد انقطاع الصلة تقريبًا بين ركنين من أركانْ الجواب الثلاثة ، ثم وقع منه السهو عن الركن الثالث منها بعد أن نوره به في صدر جوابه .

سبب نشر هذا الكتيب (المجتزأ به عن أصله) :

لقد طبع الكتاب الأصلي " مُعيد النِّعم " سابقًا أكثر من طبعة ، ولكن إخراج جوهره وصميمه ، وهو السؤال وجوابه ، هو مطلب ذو أهمية قصوى ، لتوجيه النظر إلى معالجة التاج السبكي لهذا الموضوع " عودة النِّعم بعد زوالها" بنمط فريد وأسلوب قوي .

ولذا اقتصرت على المادة التي تتعلق به باعتباره موضوعًا مستقلاً عن الكتاب الأصلي الذي تحول (بعد توسع السبكي في بيان وجوه الشكر الواجبة في كل وظيفة أو مهنة) إلى كتاب من كتب الحسبة ، وإن كان كثير ممن يهتمون بتلك الكتب لم يفطنوا لموقع هذا الكتاب بينها ، لغرابة اسمه وخلوه من أي إشارة للحسبة كما هو الشأن في كتبها .

والجدير بالذكر أن بعض الباحثين اعتبر -بحق- أن التاج السبكي صاحب نظرية في الإصلاح الاجتماعي[1] ، ذات أسس متينة ، ونوه بكيفية عرضه أراءه فيه بأسلوب قوي .

---

(١) ينظر مقال " نظرية الإصلاح الاجتماعي عند تاج الدين السبكي » للأستاذ / فاروق حماده . مجلة (دعوة الحق) المغربية، العدد التاسع السنة الثامنة عشرة ، شوال ١٣٩٧هـ ، أكتوبر - ١٩٧٧م .

إتمام الكتاب لاستكمال موضوعه :

سبقت الإشارة إلى ما وقع للسبكي من أمر غريب في كتابه الأصلي "مُعيد النِّعم" حيث نسي أن يوفي بما وعد به القارئ من شرح آخر الأمور الثلاثة التي اعتبرها متلازمة لعودة النِّعم بعد زوالها ، لذا ألحقت بهذا الكتيب (تكملة) اشتملت على البيانات الشارحة لهذا الأمر الثالث ، وهو التضرع إلى الله تعالى، من خلال مادة علمية شديدة الشبه بما أورده المؤلف في شرح الأمرين الأولين.

تفرد السبكي بموضوع الكتاب :

لعل التاج السبكي هو أول من عني بإبراز هذا الموضوع الذي هو سبب تأليفه لكتابه بصورة وافية جامعة ، وإن كان لمن سبقه من العلماء خواطر متفرقة قد أوردت بعض ما عثرت عليه منها ، ولهذا كان لنشره مغزى ديني واجتماعي وخُلقي ، وهو يمثل برنامجًا عمليًا نصح المؤلف باستخدامه كل من انطلق عليه موضوعه ، لأنه بمثابة علاج ناجع وصفه للمحتاجين إليه .



المخطوطات

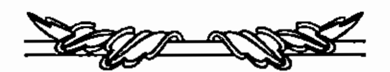


إن أهم المخطوطات المعروفة في خزائن الكتب لهذا الكتاب هي ثلاثة ، وهي التي اعتمد عليها ناشرو طبعته الثالثة بمصر وهي :

* المخطوطة الأزهرية .
* مخطوطة دار الكتب (رقم ١٨٢ مجاميع) نسخت عام ٩٥٣هـ .
* مخطوطة دار الكتب أيضًا (رقم ١٧٤ مجاميع م) نسخت عام ٨٩٠هـ.

وقد تم استخلاص نص مختار من هاته المخطوطات الثلاث ، دون الإشارة إلى المغايرات بينها ، لأنها في معظمها لفظية لا أثر لها على المعنى .

بسم الله الرحمن الرحيم



أما بعد حمد الله مُعيد النِّعم ، ومُبيد النِّقم ، بمزيد الشكر ومديد الكرم ، والصلاة والسلام على نبيِّه سيدنا محمد خير العرب والعجم ، والهادي إلى أرشد طريق وأقوم أمَم ، وعلى آله وأصحابه وصالحي أمته خير الأمم .

فقد ورد عليَّ سؤال مضمونه :

" هل من طريق لمن سُلِبَ نعمةً دِينيةً أو دنيويةً إذا سلكها عادت إليه وُردَّتْ عليه ؟ " .

فكان الجواب : " طريقه :

١ - أن يعرف من أين أُتي فيتوب .

٢ - ويعترف بما في المحنة بذلك من الفوائد فيرضي بها .

٣ - ثم يتضرع إلى الله تعالى بالطريق التي نذكرها .

هذه ثلاثة أمور هي الطريقة التي يحصل بمجموعها دواءُ مرضِه، ويعقُبها زوالُ علته ، بعضُها مرتَّبٌ على بعضٍ ، لا يتقدم ثالثُها على ثانيها ، ولا ثانيها على أولها » .

فعاد إليَّ السائل قائلاً : اشرح لنا هذه الأمور شرحًا مُبيِّنًا مختصرًا ، وصِفْ لنا هذا الدواء وصفًا واضحًا لنستعمله .

فقلتُ : هذا سرٌّ غريب ، جمهور الخلق لا يُحيطون بعلمه ، ونبأٌ عظيم أكثر الناس معرضون عن فهمه ، لاستيلاء الغفلة على القلوب ، ولغلبة الجهل بما يجب للرب على المربوب .

وأنا أبحث عن هذه الأمور في هذا المجموع الذي سميّته :

" مُعيد النِّعم ومُبيد النِّقم "

بحثًا مختصرًا ، لا أُرخي فيه عنان الإطناب ، فإنه بحرٌ لا ساحل له ، لو ركبتُ فيه [١] الصعب والذول وشمَّرت فيه عن ساق البيان وخُضت فيه لُجَجَ الدقائق لذكرتُ ما يعسُر فهمه على أكثر الخلائق ، ولانتهينا إلى ما لم يُؤذن لنا في إظهاره من الأسرار العلمية [٢]، وإنما أذكر من ذلك ما تشترك الخاصة والعامة في فهمه .

وأخُصُّ فيه بالنِّعَم الدنيوية ، إذ كانت مَحَطَّ غرضِ السائل ، عسى الله أن ينبّه بها للنعم الأخروية ، إذ هي غاية الوسائل ، وأنا أرجو أن من كانت عنده نعمةٌ لله تعالى في دينه أو دنياه وزالت ، فنظر في هذا الكتاب نظر معتقِد، وفهمَه، وعمل بما تضمنه بعد الاعتقاد ، عادت إليه تلك النعمةُ أو خير منها ، وزال همُّه بأجمعه ، وانقلب فرحًا مسرورًا ، فمن شكَّ فيستعمل هذا الدواء لا على قصد التجربة والافتقاد ، ونظر الاختبار والانتقاد بل بحُسن الظن وجميل

---

(١) أي في هذا الكتاب .

(٢) مقصوده بالأسرار هنا المسائل التي تخفي – بطبيعتها – عن إدراك العامة ، مثل مسائل القضاء والقدر، فهي بالرغم من علاقتها بموضوع (زوال النعمة وعودتها) يعسر على العامة فهم حقيقتها ، وقد سمَّى المؤلف ذلك من أسرارًا لأن الحكمة عدم تشويش العامة بها فناسب طيُّها عنهم ، لحديث : " كلموا الناس على قدر عقولهم " فهي تشبه الأسرار ، وليس في مسائل العلوم الشرعية أسرار تكتم لذاتها . لكن هناك ما لا يناسب الإفصاح به لمن لا أهليه لديه لفهمه أو الانتفاع به بل ربما يتضرر بذلك .

الاعتقاد ، فإنه عند ذلك يظفر بغاية المراد .

أسأل الله أن يصرف إليه عزمة مستحقِّيه ، ويصرف عنه همة من لا يستحقه ولا يدريه .

تذكـــر

الأمر الأول من الأمور الثلاثة لعودة النعم بعد زوالها معرفة سبب زوالها وهو الإخلال بالشكر عليها بالقلب واللسان والأفعال



الأمر الأول

أن تعلم من أين أتت النعمة
وما السبب الذي زالت به عنك النعمة ؟



فإن النعمة لا تزول عنك سُدى ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] .

اعلم أنها لم تزل عنك إلا لإخلالك بالقيام بما يجب عليك من حقوقها ، وهو الشكر ، فإن كل نعمة لا تُشكر جديرةٌ بالزوال .

ومن كلامهم : النعمة إذا شُكرت قرَّتْ ، وإذا كُفِرت فَرَّتْ .

وقيل : لا زوال للنعمة إذا شُكِرَتْ ، ولا بقاء لها إذا كُفِرَتْ .

وقيل : النعمة وحشيَة (١) فأشكلوها (٢) بالشُّكر .

والأدلة على أن كفران النِّعم يوجب انزواءها كثيرة ، فلا نُطيل بذكرها ، والحاصل أن كتاب الله وسُنَّة رسولِه ﷺ دالَّان على أن كفران النعمة يؤذن بزوالها، وشكرها يقضي بمزيدها .

وذكر العارفون أن الرب قطع بالمزيد مع الشكر ، ولم يستثنِ فيه ، واستثنى في خمسة أشياء : في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .

فقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾[التوبة : ٢٨] .

---

(١) أي غير مستأنسة ، فلا تحفظ إلا بالربط ، كالدابة النَّفور .
(٢) أشكلوها : أربطوها . والشكال: الحبل .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة : ٢٧] .

وقال تعالى في الشكر من غير استثناء : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

حقيقة الشكر وأركانه :

فإن قلت : فما الشكر ؟ ، قلت : قد شرحه العارفون وبينوا حقيقته وأنا أختصر لك القول فيه وأتى بما يقرب من فهم فأقول : الشكر يكون بالقلب واللسان والأفعال ، هذه أركانه الثلاثة .



الركن الأول

الشكر بالقلب



أما القلب وهو أعظمها فالمراد منه أن تعلم وتعتقد أن الله هو الذي منحك النعمة، لا أحد سواه يشاركه ، فإن كل من تقدَّر من كبير وأمير ، ووزير ، وصاحب، وخليل ، ووالد، وغيرهم ، لا يقدر على فعل شيء لنفسه ، فضلاً عن غيره ، وإن جرى على يديه خير فالله تعالى هو الذي أجراه على يديه ، وإلا فهذا لا مدخل له فيه ولا صنع ، فمن أنعم عليك ملكٌ من الملوك بشيء ، فإن رأى لوزير الملك أو لحاشيته مدخلاً في تيسير ذلك وإيصاله فهو إشراك بالملك في النعمة ، إذ لم يَرَ النعمة منه من كل وجه ، بل رآها منه ومن غيره فيتوزع فرحه عليهما ، فلا يكون موحِّدًا في حق الملك ، فمن حق الملك أن يعاقبَه على هذا الاعتقاد .

علاج عدم إفراد الشكر لله :

فإن قلت: ما علاجُ هذا الداء ؟ ، فإني أرى أُناسًا لي عليهم خدمة ، ولي عندهم يد ، وبيني وبينهم صداقة ، يصدر على أيديهم نفعي في ديني ودنياي، فلا أستطيع أن أدفعهم عن قلبي .

قلت : من الذي سخَّرهم لك وألقى في قلبهم الداعية ويسَّر الأسباب عليهم حتى أوصلوا النفع إليك ؟ ، هات ، قل لي .

فإن قلت : « الله الذي سخرهم وسخر الشمس والقمر ، وكلٌّ يجري بأمره»،

فاعلم أنهم مسخرون تحت قبضته ، فإن كنت معتقدهم فاعلين شيئًا، فهلَّا اعتقدت القلم والحبر والكاغد التي كُتب بها منشورك فاعلاً ! ، ولم لا اعتقدت الموقِّع فاعلاً ؟! ، ولم لا اعتقدت الخازن الذي يخرج لك الدراهم فاعلاً ؟! ، فإذا كنت تعتقد أن كل واحد من هؤلاء مقهور من الملك مجبور، ولو خُلِّي ونفسه لما أعطاك ذرة ، فافهم أن كل من وصل لك على يديه خير من المخلوقين فهو كذلك في قبضة رب العالمين ، فاشكره وحدَه ولا تشرك به أحدًا.

واعلم أن المخلوق مضطر سلط الله عليه الإرادة ، وهيَّج عليه الدواعي، وألقى في قلبه أن يعطيك ، فلم يجد بعد ذلك سبيلاً إلى دفعك ، ولا يعطيك -والحالة هذه- إلا لغرض نفسه لا لغرضك ، ولو لم يكن له غرض في الإعطاء لما أعطاك ولو لم يعتقد أن له نفعًا في نفعك لما نفعك ، فهو إذًا إنما يطلب نفع نفسه بنفعك ويتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى يرجوها لنفسه ، وما أنعم عليك إلا الذي سخَّره لك وألقى في قلبه ما حمله على الإحسان إليك .

الحكمة في شكر المخلوق :

فإن قلت : فلم ورد الشرع بشكري إياه حيث قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « لَا يَشْكُرِ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ »[(١)] .

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللهَ ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ "[(٢)] .

---

(١) رواه أبو داود بهذا اللفظ والترمذي بلفظين : أحدهما : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » ، والآخر : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» .

(٢) الحديث في إسناده الجراح بن مليح والد وكيع ، تكلَّم فيه بعضهم ، والعمل على توثيقه ، وأخرج له مسلم.

وفي حديث الأشعث بن قيس الكندي : " **إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس** "[١].

قلتُ : ورد بذلك لكونه أجرى النعمة على يديه ، فيكون شكرك إياه داعيًا له إلى أن يزيد من فعل الخير ، ودلّك إلى أن تشكر الفاعل بالحقيقة الذي هو الربُّ تعالى ، ولغير ذلك من الأسباب التي لا غرض الآن في شرحها .

فعليك شكرُه لأجل أمر الله تعالى ، لا لاعتقاد أنه فاعل ، بل لو شكرته بذلك الاعتقاد كنت مشركًا لا شاكرًا ، فاشكره واعلم أنه لا ينفع ولا يضر، وأنه ربما تغير عليك بأيسر الأسباب، وانقلب حبه بغضًا وزالت تلك الدواعي وتبدلت بضدها ، وإنما المحسن الذي لا يتغير ولا يحول ولا يزول: ربُّ الأرباب، والواسطة بين الخلق والحق الذي هو بنا رؤوف رحيم لا تتغير حالته: محمد المصطفى ﷺ ، فلا فاعل إلا الله ، ولا سبب لخير إلا نبيُّه المصطفى الأمين خير الخلق أجمعين محمد ﷺ سيد المرسلين والنبيين، عليه أفضل الصلاة والسلام من رب العالمين .

فإذا استقرت هذه القاعدة عندك بحيث صرت تتلقى كل ما يأتيك من الله تعالى، لا من أحد من خلقه ، فهذا شكر عظيم للنعمة ، وهو أعظم أركان الشكر، ولذلك أطلق عليه كثير من المحققين أنه نفس الشكر ، حيث قالوا : "الشكر: الاعتراف بنعمة المُنعم على وجه الخضوع " ، وإنما أطلقوا عليه ذلك لكونه أعظم الأركان ، كما في قوله ﷺ : " **الحج عرفة** " ، و" **الندم توبة** " ، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد بن منيع في مسنده .

أخبرنا داود بن سليمان بن داود الآباري إذنًا ، أخبرني عمُّ أبي أبو الطاهر يوسف بن عمر بن يوسف سماعًا ، أنبأنا بركات بن إبراهيم الخشوعي ، أنبأنا هبة الله بن الأكفاني ، أنبأنا أحمد بن عبد الواحد بن محمد ، ومحمد بن عقيل بن أحمد (قالا) : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عثمان بن أبي الحديد ، أنبأنا أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي السامري ، حدثنا يحيى بن أبي طالب ، حدثنا عليّ بن عاصم ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي عمرو الشيباني ، قال: **"قال موسى عليه السلام يوم الطور : يا رب إن أنا صليت فمن قِبَلك ، وإن أنا تصدقت فمن قِبَلك ، وإن أنا بلغت رسالتك فمن قِبَلك ، فكيف أشكرك؟!، قال : يا موسى الآن شكرتني" . وفي لفظ : " إذا عرفت أن النعم منِّي فقد رضيتُ بذلك منك شكرًا "** [١] .

وهذا حق ، فجميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمةٌ من الله تعالى علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا ودواعينا وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا وسكناتنا: من خَلْقِ الله ونعمته ، فنحن نشكُر بنعمتِه نعمته [٢] .

وإلى هذا المنزع أشار خطيب العلماء الشافعي -رحمه الله- حيث قال :

"الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمةٍ من نعمِهِ إلا بنعمةٍ منه تُوجب على مؤدٍّ ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثةً يجب عليه شكرها ، ولا يبلغ الواصفون

(١) أورد القرطبي نحو هذا لكن عن سيدنا داود عليه السلام أنه قال : أي رب ، كيف أشكرك وشكري لك نعمة مجددة منك عليّ ؟! ، قال : يا داود الآن شكرتني . تفسير القرطبي ٢٠/ ١٠٢ .

(٢) قال القرطبي : حقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم . وألا يصرفها في غير طاعته (تفسير القرطبي ٩/ ٣٤٣ .

كُنْه عظمته الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقُه » [١] . انتهى .

وأنشد محمود الوراق لنفسه :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً .·. علي لـه في مثلها يجب الشكرُ

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله .·. وإن طالت الأيام واتصل العُمرُ

عدم استقلال نعمة الله سبب لدوامها :

ولم يزد العلماء في هذا الركن أكثر مما ذكرناه ، وعندي أنه يتعين على ذي النعمة أيضًا أن ينظر إليها وإن قلَّتْ بعين التعظيم لكونها من قبل الله تعالى ؛ فإن قليله لا يُقال له قليل ، وإلى نفسه بالتحقير بالإضافة إليها ؛ لا باستحقاقٍ عليه ، بل بفضل منه .

ولا يخفى عليك أن من وصلت إليه هديةٌ من مَلِكٍ فاستقلَّهَا ولم يعبأ بها، فإن الملك ينقِمُ عليه ، ويشدد عقوبته ، ويأخذ في نفسه منه ، ويمنع عنه العطاء، وإن استعظمها واستحقر نفسه بالنسبة إليها فإن الملك يحب ذلك منه ويحمله هذا الأمر على إسداء نعمة أخرى ، والربُّ تعالى لا تخفى عليه خافية ، فمهما وقع في نفسك فهو مطلع عليه : فإن وقع في قلبك استقلالُها فإنه يُخشى عليك زوالُها وافتقارُك إليها ، وإن وقع في نفسك استعظامها فأبشر بدوامها والازدياد.

(١) هذا التحميد من مقدمة "الرسالة" للشافعي ص٧-٨ ، طبعة مصطفى البابلي ١٩٤٠ ، بتحقيق أحمد محمد شاكر .

ومن هذا القبيل التحميد الذي افتتح به محمد بن علي الهمذاني النيرماني كتابه " منثور النظم البهائي" المتوفى عام ٤١٣هـ، وهو:

الحمد لله رب العالمين ، حمد العارفين العالمين ، بأن نعمه علينا ، وعوارفه لدينا أسبق أن يلحقها شكر ، وأسبغ أن يمحقها كفر ، وأكثر من أن يحصيها عدٌّ ، وأكبر من أن يحصرها حدَ ، وأنّى يبلغها الحصر والإحصاء ، وأين يبلغ منها الشكر والثناء ، وهي مع تناهيها في الكمال إلى أبعد الآماد ، لا تزال متضاعفة المواد مترادفة الأمداد ... " ص ٢ طبعة معهد تاريخ العلوم ، فرانكفورت .

سمعت الشيخ الإمام -رحمه الله - [1] يقول : أعطيت بعض الناس عطاء فاستقلَّه ، فعلمت أن الله يسلبه إياه ويحوجه إليه .

فإن قلت : ما علاج هذا الداء ، فإن كثيرًا من الناس يعطون ما يرونه قليلاً بالنسبة إليهم ؟ .

قلت : علاجه أن ينظر إلى نفسه ويرى هل يستحق على الله شيئًا ؟ ، وما أصله؟، وكيف وصل إلى ما وصل ؟ ، فما من أحد يعتبر حاله من أول منشئه إلى إيصال النعمة التي هو فيها مفكِّرٌ ولها مستقلٌّ إلا ويجدها نعمة ليست في حسابه وكثيرةً عليه ، فهذا دواء من أدوية هذا المرض .

ودواء آخر : وهو أن تأخذ النعمة من الله تعالى ، وتعلم أن العظيم إذا أسدى إلى عبده الحقير معروفًا – وإن قَلَّ – فقد ذكره ، وما حقرك من ذكرك وما ذكرك الكريم إلا وفي نيته أن يجبرك ، فتلقَّ ما يأتي منه بالبشرى ، واحذر الأخرى. وإن كان ما أسداه إليك قليلاً عليك فهو بالنسبة إلى أنه من عطائه كثير عليك ، وبالنسبة إلى أنه طريق إلى عطاء آخر أكثر منه – إذا شكرته – كثيرٌ أيضًا ، وإنما يجيئك الاستقلال من نظرك إلى النعمة دون المُنعم .

ونحن نضرب لك مثلاً فنقول : الملك إذا عزم على السفر ، وأنعم على بعض حاشيته بفَرس ، ففرحُه بالفرس يُفْرَضُ على وجوه :

١- أعلاها – أن يفرح بها لأنها طريق إلى خروجه في خدمة الملك ونزوله بقربه وحلوله منه بالمنزلة الدانية وصيرورته من الخاصة بعد أن كان من العامة، فهذا فرحه بالفرس ، لأنها طريق إلى مشاهدة الملك ومنادمته ، لا

---

[1] يقصد والده تقى الدين على بن عبد الكافي السبكي . وقد تكررت الإشارة إليه بقوله "الشيخ الإمام" .

لأنها فرس.

٢- ودون هذا - أن يفرح بالفرس لا لكونها فرسًا ، ولكن لما يدل عليه من عناية الملك به وذكره له وشفقته عليه ، فهذا يفرح بها لا لكونها فرسًا ، بل لأمور أخرى تترتب عليها .

٣- وأخسُّها وأحقرها - أن يفرح بها لكونها فرسًا يركبها ، فهذا إنما فرح بالفرس ولم ينظر إلى المُعطي ، ولا فرق عنده بين أن يكون الملك هو الذي أعطاه أو أن يجد الفرس في الصحراء .

٤- وثَمَّ وجه رابع - وهو أن يفرح بها لمجموع هذه الامور ، فيفرح بها لأنها توصل إلى منادمته الملك ، ولأنها تُؤْذِن بغيرها ، ولأنها تنفعه ، فهذا أيضًا لا بأس به ولكن دون المقام الأول ، لأن الأول لا غرض له إلا الملك وحده، ولكن ذاك مقام عالٍ يترفع عن همم أكثر أهل الدنيا الذين وضعنا لهم هذا الكتاب . فلذلك لا نُطِنب في شرحه ، وإنما نقتصر على إفهام الأكثر ، حتى إذا حصلوا على ما نودعه في هذا الكتاب ترقوا منه النظر في المقام الأعلى ، فباب الرحمة مفتوح ، والربُّ مُنادٍ : فأين المشمِّرون ؟ .



الركن الثاني

الشكر باللسان



وأما اللسان فالمراد منه حمد الله تعالى عليها والتحدث بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١] . فيتحدث بها لا لرياء وسمعة وخُيلاء ، بل للثناء على الرب تبارك وتعالى .

كان جماعة من السلف -رحمهم الله- يجلسون فيتطارحون حديث نِعمهم حتى ينتهي مجلسُهم وهم على ذلك .

وذكر الأستاذ أبو القاسم القشيري أن بعضهم قال : رأيت في بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن في السنِّ ، فسألته عن حاله ، فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عَمٍّ لي ، وهي كذلك كانت تهواني ، فاتفق أنها زُوِّجت منِّي، فليلةَ زِفافها قلنا : تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكرًا لله تعالى على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحد منا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك .فمنذ سبعين – أو ثمانين – سنة نحن على تلك الحالة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ ، فقالت العجوز : كما يقول الشيخ . فهذا الشيخ تحدث بنعمة الله تعالى عليه الذي ألهمه لهذا الشكر العظيم ، وذلك أيضًا من الشكر [1].

وروى أن وفدًا قدموا على عمر بن عبد العزيز – رحمه الله– ، فقام شابٌّ

---

(١)قارن بين اعتباره هذا من الشكر! وبين ما جاء (ص ٣٤) في " ضابط الشكر " بأنه ليس إهمال النعمة – كما حصل في هذه الحادثة – وليس الشكر على وجه غير الوجه الذي عليه بنيت النعمة ، كما قال المؤلف. وقوله هنا بأن هذه الحادثة من الشكر محكوم عليه بذلك الضابط ، وقد أورد القرطبي هذه الحكاية دون تعليق عليها (تفسير القرطبي ٤/ ١٣٢) .

ليتكلم ، فقال عمر : الكُبْرَ الكُبْرَ . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسنِّ لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك . فقال : تكلم ، فقال : لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلُك ، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلُك ، وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان .

والأخبار في هذا كثيرة ، وليس استيعابها من غرض كتابنا .

واعلم أن هذين الأمرين - أعني الشكر بالجنان وباللسان - يشملان كل نعمة ، ونسبة النعم إليهما على حد سواء .



الركن الثالث

الشكر بالأفعال



وأما الأفعال فالمراد منها امتثال أوامر المنعم واجتناب نواهيه ، وهذا يخص كل نعمة بما يليق بها ، فلكل نعمة شكر يخصها .

والضابط أن تستعمل نعم الله تعالى في طاعته ، وتتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، فليس من شكر النعمة أن تُهملها وتشكر على وجه غير الوجه الذي عليه بنيت ، فمن عدل عنها إلى نوع آخر من الشكر فقد قصَّر وترك الأهمّ ، وإنما الرشد من جمع بين الأمرين ، فإن كان لابد من التفرقة ، فالأنسب استعمال كل نعمة فيما خُلقت له .

وهذا يتضح بأمثله :

المثال الأول

" العين "

من شكر نعمة العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وتغضهما عن كل قبيح، إلى غير ذلك من أحكام النظر .

فإن أنت أخذت تصلي كل ليلة ركعتين على شكر نعمة العينين ، وأنت مع ذلك تستعملهما في النظر المحرم فلست بشاكر هذه النعمة حقَّ شكرها .

المثال الثاني

" الأذن "

من شكر نعمة الأذنين أن لا تسمع حرامًا ، وأن تستر كل عيب تسمعه ، فإن أنت تصدقت بدرهمين شكرًا لله تعالى على نعمة الأذنين ، وهتكت كل قبيح سمعته ، وأصغيت إلى كل حرام وعيته ، فلست من الشاكرين .

المثال الثالث

" الولايات "

وهو يشمل الخليفة فمن دونه من السلطان ونوَّابه والقضاة وسائر أرباب الأمور ، وسنخصُّ لكل فرد منهم مثالاً :

إذا ولاك الله تعالى أمرًا على الخلق فعليك :

* البحث عن الرعية .

* والعدل بينهم في القضية .

* والحكم بينهم بالسوية .

* ومجانبة الهوى والميل .

* وعدم سماع بعضهم في بعض إلا أن يأتي بحجة مُبينة .

* وعدم الركون إلى الأسبق، فإن وجدت نفسك تصغي إلى الأسبق وتمثل إلى صدقه فاعلم أنك ظالم للخلق، وأن قلبك إلى الآن متقلب مع الأغراض يميله الهوى كيف يشاء ، وإن وجدت الأسبق والآخر سواء ، إلا من جاء بحق، فأنت أنت!!.

وقد اعتبرت كثيرًا من الأتراك فوجدتهم يميلون إلى أول شاكٍ ، وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم التي صيَّرت قلوبهم ، كالأرض الترابية التي لم ترو بالماء ، فإذا أتاها ماء رويت ، سواء أكان ذلك الماء صافيًا أم كدرًا ، زلالاً باردًا أم كدرًا حارًّا ، ثم إذا رويت وجاء ماء آخر صاف حسن لم تشربه وصار مائعًا عليها ، فهذه هي القلوب الغافلة عن الحق . نسأل الله السلامة .

فعليك شكر نعمة الولاية بما ذكرناه ، وأن تعرف أنك أنت والرعية سواء لم تتميز عنهم بنفسك ، بل بفعل الله تعالى الذي لو شاء لأعطاهم ومنعك ، فإذا كان قد أعطاك الولاية عليهم ومنعهم ، فما ينبغي أن تتمرد وتستعين بنعمته على معصيته وأذاهم ، بل لا أقل من أن تتجنب أذاهم وتكف عنهم شرَّك وتجانب الهوى والميل والغرض ، فنعمة الولاية لا تطلب منك غير ذلك .

ولو أنك تركت الناس هملاً يأكل بعضهم بعضًا ، وجلست في دارك تصلي وتبكي على ذنوبك لكنت مسيئًا على ربك ، فملكك لم يطلب منك أن تتهجد ولا أن تصوم الدهر ، وإنما يطلب منك ما ذكرناه ، فإن ضممت إليه أعمالاً أخرى صالحة كان ذلك نورًا على نور ، وإلا فهو شكر نعمة الولاية الذي به تدوم .

ولعلك تقول : فإن قمت بحقوق الرعية مع التقصير في حق الله تعالى هل أنا محمود؟، فاعلم أنك محمود من تلك الجهة مذموم من الجهة الأخرى ، وإلا فيصير مذمومًا في الجهتين .

فلا يخطر لك أنه يمكن اجتماع التقصير في حق الله تعالى من كل وجه ، والقيام بحق العباد من كل وجه ، بل هذا مستحيل عادة ، فقد جرت عادة الله سبحانه وتعالى بأن من أهمل جانبه من كل وجه ، سُلِّطَ عليه الشيطان فاستولاه واستزله وصيَّره يضيع جانب العباد أيضًا .

ومن رشيق عبارات الشافعي -رحمه الله- وقد ذكر أن الرشد صلاح الدين والمال معًا : " من ضيع حق الله تعالى فهو لما سواه أضيع " فعليك أن تتعهد نفسك بالعبادة ومراقبة الحق .

وليس مقصدنا الآن البحث عن هذا ، إنما الذي عقدنا له الفصل أن ذا النعمة يجب عليه اعتقاد أنها من الله تعالى ، وحمد الله عليها ، والوفاء بحقها .

وقد جمع الشاعر هذه الأمور في قوله :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ∴ يدي ولساني والضمير المحجبا

والشاعر وإن لم يقل : إن هذا شكر فقد جمع أصنافه وقد بينا لك أن مجموعها الشكر .

ومن كلامهم : الشكر ثلاث منازل : ضمير القلب، وثناء اللسان، والمكافأة بالفعل. والتعبير بالمكافأة عندي غير سديد ، فإن أحدًا لا يقدر على مكافأة المنعم بالحقيقة ، وإنما المعنيُّ به استعمال الجوارح بقدر الاستطاعة في التكاليف حسبما شرحناه [١].

---

(١) مما يستكمل به موضوع الشكر الدعاء بأن يعان الإنسان على الشكر ، وهو من أدعية القرآن ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩] ، ومن السُّنَّة ما رواه معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : " وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ، فَقَالَ : أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ " أخرجه ابن أبي الدنيا وهو من الأحاديث المسلسلة بعبارة يقولها رواته وهي " يا فلان إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقُل ..." وقد أخرجه أيضًا أبو داود والنسائي ، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه ، ولكن بزيادة أن هذا الدعاء يُقال دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ .
وقد أورد أحاديث الشكر ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ، الذي نقحه الشيخ عبد الله الصديق الغماري وسماه "الأربعين الغمارية " .
ومما يتصل بالشكر : سجدة الشكر ، لحديث أبي بكر مرفوعًا كان النبي ﷺ إذا جاء أمر يسرَّه خَرَّ ساجدًا شكرًا لله ، أخرجه أحمد وأبو داود وحسنه الحاكم وصححه .
وعن البراء رضي الله عنه أنه ﷺ سجد حين جاءه كتاب من اليمن بإسلام همدان . رواه البيهقي وصححه ، "الأربعين الغمارية ٣٩" .

المثال الرابع

" بطانة أصحاب الولايات "

إذا كنت مقبول الكلمة عند ولي الأمر ، فالمطلوب منك أن تنصحه ، وتُنهي إليه ما يصح ويثبت عندك من حال الرعايا ، وتساعد عنده على الحق بما تصل إليه قدرتك .

ولا يكن حظُّك منه الاقتصار على حُطام تجمعه لنفسك أو دنيا تضمها إليك، فإن ذلك سبب زواله عنك ، بل المقتضى لدوام ما عندك منه ما ذكرناه من النصيحة والمساعدة في الحق ، لتدوم لك نعمته التي هي سبب نعمتك ، ومودته التي بها وصلت إلى ما وصلت ، وليدوم لك منه ما أسداه إليك .

وما أحمق من كانت له كلمة نافذة عند ولي أمر ، فوجد مظلومًا يستغيث فقام يصلي شكرًا لله تعالى على أنه جعله ذا كلمة نافذة عند ولي الأمر ، وترك المظلوم يتخبطه الظلم ولا يجد منجدًا وهو قادر على إنجاده فذاك الذي صلاته وبال عليه ، كما قال الفقهاء فمن كان يصلي فمر به غريق تتلاطمه أمواج البحر وهو قادر على إنقاذه ، فإنه يجب عليه قطع الصلاة وإنقاذه ، وذاك وهذا سِيَّان.

واعلم أن هذين المثالين (أعني الثالث والرابع) يشملان كلَّ ولي أمر وكلَّ مقبول الكلمة عند ولي أمر صغير أو كبير .

ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة تستوعب معظم الوظائف التي استقرت عليها قواعد المسلمين في هذا الزمان ونذكر ما يطالَب به صاحب تلك الوظائف يوم القيامة ، ويُخشى عليه في الدنيا والدين سوءُ العاقبة بسبب التفريط فيه ، ما يكون موقظًا له من سنة الغفلة ومرشدًا ، إن شاء الله تعالى ،

لعل الله ينفع به أقوامًا [١].

في كل ولاية أو مهنة نعمة تقتضي تكليفًا وشكرًا :

ولقد أطلنا في ذكر هذه الأمثلة ، بحيث إنها تحتمل مصنفًا مستقلاً [٢] .

والحاصل ؛ وهو المقصود ، أنه ما من عبد إلا ولله تعالى عنده نعمة ، يجب عليه أن ينظر إليها ، ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته حسب ما وضعناه، ولا يستحقرها ولا يربأ بنفسه عليها ، وذلك ميزان يستقيم في كل الوظائف ، فليعرض كل ذي وظيفة تلك الوظيفة على الشرع ، فإن سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا محمدًا المصطفى ﷺ بيَّن لنا أمر ديننا كله ، فما من منزلة إلا وأبان لنا عمّا ربطه الشارع بها من التكاليف ، فليبادر صاحبها إلى امتثاله ، منشرح الصدر، راضيًّا ، ويبشر عند ذلك بالمزيد ، وإلا فإن هو تلقاها بغير قبول ، ولم يعطها حقَّها خشى عليها زوالها عنه واحتياجُه إليها ، ثم يطلبها ، فلا يجدها ، وإذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطُه في القيام بحقها .

وأنا أضرب لك مثلاً ، فأقول : إذا كنت أميرًا ، قد خوَّلك الله نعمًا هائلة ، لو استحضرت نفسك لوجدتها لا تستحق منها ذرَّةً ، وبتَّ في بيتك تتقلب في أنعم الله ، بين يديك الدراهم والذهب ، والمماليك والجواري ، وأنواع الملابس الفاخرة ، وأصناف الملاذّ ، ثم أصبحت ركبت الخيول المسوَّمة ، ولبست الثياب الحسنة ، ثم جلست في بيتك لابسًا قباءً عظيمًا ، مطرَّزًا بالذهب الذي

(١) بعد هذه الأمثلة الأربعة التي لها صفة العموم تغيرت طبيعة الأمثلة من المثال الخامس إلى المثال الثالث عشر بعد المائة ، حيث تناول المؤلف في كل مثال نوعًا من أصحاب الولايات والمهن على نحو ما تشتمل عليه كتب (الحسبة) المعروفة .
وهذه الأمثلة الخاصة بالنسب لمقصود هذا الكتاب استطراد مفيد لكنه حجب القارئ عن الإدراك الجيد للأمور التي وزعها بين أول الكتاب وآخره بيانًا لطريقة عودة النعم بعد زوالها .
(٢) وهذا ما فعله أصحاب كتب (الحسبة) وبهذه الأمثلة اندرج فيها هذا الكتاب (بحسب أصله) وإن كان عنوانه قد جعله مجهولاً لكثيرين ممن نوهوا أو عُنوا بكتب الحسبة .

حرمه الله تعالى على الرجال ، مطرقًا مصممًا بوجه عبوس ، تُبرق وترعد كأنك طالب ثأر من الخلق ، وأخذت تحكم فيهم بخلاف ما أمرك الله به ، الذي بت تتقلَّب في أنعمه ، معتقدًا أن ما تحكم به هو الأصلح ، وأن حكم الله تعالى لا ينفع ، فما جزاؤك ؟ ، وَلِمَ لا تزول عنك هذه النعمة ! فإن ضممت إلى هذا أنواعًا أخر من المعاصي ، فأنت بنفسك أخبر ، والله عليك قادر .

فاحفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة ؛ خف الله الذي يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته .

واعلم أن ما من عبد إلا وعليه حقوق للمسلمين ، يتعيَّن عليه توفيتها ، والشكر عليها ، حيث إقامه الله فيها ، واستأهله لها ؛ فإنها خِدْمة من خدم الله تعالى ، ولا يخفى عليك أن ملكًا لو استخدمك في أيسر حاجة لسُررت بذلك؛ فكيف بملك الملوك ! وما من وظيفة إلا وللمسلمين حقوق على صاحبها .

سمعت الشيخ الإمام -رحمه الله- يقول: لكل مسلم عندي، وعند كل مسلم حق في أداء هذه الصلوات الخمس، ومتى فرَّط مسلم في صلاة واحدة كان قد اعتدى على كل مسلم ، وأخذ له حقًا من حقوقه ؛ لعدوانه على حق الله تعالى. قال : ولذلك أسمع دعوى من يدَّعي على تارك صلاة واجبة ، وإن لم يدع على وجه الحسبة ؛ لأن لكل مسلم فيها حقًا ؛ فيقول : أدَّعي على هذا أنه ترك الصلاة الفلانية ، أو اعتمد فيها ما يُفسدها، وقد أضرَّ بي في ذلك ، فأنا مُطالبه بحقِّي.

قلت : وَلِمَ ؟ .

قال : لأن المُصلي يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، والنبي ﷺ يقول:" إن المصلي إذا قال هذا أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض " .

قلت : ورأيت للقفَّال ما يقتضي ذلك .

وإذا فهمت أيها العاقل - وفقنا الله وإياك لمرضاته وأحلَّنا وإياك بكرامته بُحبوحة جنَّاته - ما شرحناه لك ، فإذا انزوَت عنك نعمةٌ ؛ فأول متعين عليك إن كنت باغيًا عَوْدها ، البحث عن سبب انزوائها : بأن تنظر إلى وظيفتك ، وتفريطك فيها ، بالإخلال بواحد من وظائف الشكر ، وتعلم أنك أتيت منها ، فتذكر ذلك . فمتى ذكرته وكان تعلق قلبك بها صادقًا ، وعلمت أنه السبب في زوالها ، ندمت - ولابد- عليه وتبت عنه وعقدت النية على أنك إن عادت إليك النعمة لم تَعُدْ إليه .

فإن قلت : لا أذكر تفريطًا ، فأنت إذًا جاهل .

واعلم أن للشيطان وساوس وتخيلات، وأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وأن أعدى عدوّ لك نفسك التي بين جنبيك ، وأنهما - أعني نفسك والشيطان- ربما أرَياكَ الباطل حقًا ، واسترقَّاك من حيث لا تدري ، واسترقَّاك وأنت تظن أنك حر ، فاقطع واجزم بأنك مفرِّط لا محالة ، واستغفر الله تعالى، واضرع إليه، وإن لم تدر وجه التفريط بخصوصه ، فاعلمه على الجملة ، ولا يكن عندك شك في أن هناك تفريطًا ، فهمته ، ثم جهلته ، وأنك منه أتيت .

فإنك إذا علمت ذلك وأيقنت به ، فهمت أن الحق تعالى عادل فيك ، غير ظالم لك ، بل محسن إليه ، أسداك نعمة بلا استحقاق ، فما رعيتها حق رعايتها، فزواها - عنك - . فعليك شكر تلك الأيام التي كنت متلبسًا بها فيها، والاستغفار من تفريطك .

أرأيت رجلاً أجلسك في داره يُطعمك ويسقيك عشرة أيام ، ثم قال لك :

انصرف، أيكون مسيئًا إليك أم محسنًا ؟ ، إن قلت : مسيئًا إليك ، فأنت مجنون؛ فإنه لم يكن عليه حقٌّ لك ، وقد أحسن إليك هذه المدة ، فبأي طريق يجب عليه أن يديمها : وإن قلت : يكون محسنًا ، وقد أزالها بلا سبب ، فما ظنُّك برب لا يُزيل النعمة إلا بسبب منك ! ألست أنت الظالم ؟!!.

حُكي أن ملكًا مات له ولد ، فأفحش في إظهار الحزن عليه ، والتسخُّط بسبب ما أصابه ، فأتاه آت ، فقال : أيها الملك ، إن لي صاحبًا أودعني جوهرةً، فكانت عندي مدة ، أتلذذ برؤيتها ، ثم إنه استرجعها ، وأنا أسألك طلبَه ، وإلزامه بإعادة الإيداع ، فقال له : كيف ألزمه بأن يودع ماله عندك ؟ ، فقال له: فالله أودع عندك ولدًا لك هذه المدة ، ثم استردَّه ، فَلِمَ هذا التسخُّط ، فانشرح صدر الملك ، ورفع العزاء .

وأنشد بعضهم :

وما المال والأهلون إلا وديعةٌ .·. ولابُدَّ يومًا أن تُردَّ الودائع [1]

---

(١) قال البرهان بن أبي شريف :
وفي قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إرشاد إلى سلوك الأدب مع الله. بالإعراض عن الاعتراض على ما يجري من تصاريف الأقدار ، وما يعتور المحدثات من التغير والانتقال ، فلا يأنس العبد بموجود ، ولا يأسف على مفقود، لأن المعترض على الملك العالم بما تؤول إليه العواقب ، والموجد لما ملك ، الخبير بما هو الأليق ، العليم بما هو الأوفق ، مسلوب لباس العقل ، حري بوصف الحمق ، حقيق باسم الجهل .
فإذا خولك في فضل من مال أو ولد أو عدد ، تثوي زمانًا ثم نقله عنك ، فواجب عليك الشكر ما بقيت أنت، في زمن قيام النعمة بك لدوام السبب ، وبعد زوالها لوجود مقتضي السكر وهو إسداؤها ، وزوالها عنك لا يرفع السبب .
على أنه ما منعك دوام ما منحن إلا لما هو أصلح لك ، من ادخار ثواب ، أو عقوبة لك، نظرًا إلى أن منعك ذلك أدعى لك إلى التيقظ وأبعث إلى استعمال التنبه ، وأخف من الانتقام بوم القيامة .
وما أنصف ما اتصف بالجزع عند أخذ المالك ملكه منه ، وقد متَّعه به حينًا .
(المواهب المدخرة في خواتيم سورة البقرة - مخطوط) .

فإن قلت : قد يزيلها زيادةً في رفع الدرجات ، فاعلم أن هذا مقام عَسِر ؛ لم تصل أنت إليه ، فليس كلامي مع أهل هذه الطبقة ، إنما كلامي مع جمهور أهل هذا الزمان ، الذي اندفعنا إليه ، ولو كان كلامي مع أهل هذا المقام لقلت لهم : تلك نعمة تبدلت بأعظم منها ؛ ولا يقال : إنها زالت . ولهذا شرح طويل ليس من غرض هذا الكتاب .

فهذه واحدة من الأمور الثلاث ، التي بمجموعها تعود النعمة وتزول النقمة .

الأمر الثاني

من الأمور الثلاثة لعودة النعم بعد زوالها

الاعتراف بفوائد انزواء النعمة والرضا بذلك



الأمر الثاني

في فوائد انزوائها



فنقول: قد تعترف بالأمر الأول، وتذعن له، ولكن تقول في نفسك: إنه لا خير لي في هذه المحنة، وليت النعمة لم تَزُل، وإن كنت أنا السبب في زوالها، فإن أنت اختلج في ضميرك هذا، فاعلم أنك لم توف الشكر حقَّه، ولم تحسن السعي في عوْدها، وكنت كمن يأتي البيوت من غير أبوابها، ويلج الدور بدون حُجّابها، فامحُ ما في نفسك، وارجع إلى حسِّك.

واعلم أن المحنة من الله، ليست من أحد غيره. وهذا كما عرّفناك في النعمة سواء. فأول ما تعتقده أن الله تعالى هو الفاعل بك ذلك؛ لتمرّدك، وطغيانك. وإن أنت ظننت في أحد من الخلق أنه الفاعل بك هذا فهذه زَلَّة عظيمة يُخشى عليك منها دوامُ المحنة. فإذا اعتقدت ذلك، وتلقَّيت المحنة منَ الله تعالى، فهذه نعمة تورث عندك الفرح بالمصيبة.

ثم انظر في نفسك: أمؤمن أنت أم كافر؟، فإن كنت كافرًا فمصيبتك بالكفر أشد من سائر المصائب، فابك على تلك المصيبة، وبادر إلى زوالها ودع عنك الفكرة فيما عداها، وإن كنت مؤمنًا فاعلم أن ما لاقاك به الدهر هو ديدنه وعادته في حق المؤمنين؛ فإن دار الدنيا مملكة أعدائك، ومحلَّةُ بلائك؛ والإنسان لا يكون في مملكةِ عدوّه مستريحًا، وإنما يكون مصابًا معذَّبًا بأنواع الأنكاد والمتاعب. فلا تستغرب ما أصابك، بل اعلم أنه القاعدة المستقرة في حقك، والغريب ما جاء على خلافها.

ولهذا كان سيّد الطائفة الجنيد -رحمه الله- يقول: لا أستنكر شيئًا مما يقع من العالم؛ لأني قد أصَّلت أصلاً ؛ وهو أن الدار دار غمّ وهمّ وبلاء وفتنة ، وأن العالم كله شرّ ، من حقه أن يتلقاني بكل ما أكره . فإن تلّقاني بما أحبَ فهو فضل؛ وإلا فالأصل الأوّل . وإنما قلنا : إن الدنيا مملكة أعدائنا ، ودار أحزاننا ، لما ثبت وصحّ في صحيح مسلم وغيره ، من قول رسول الله ﷺ : **"إن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر"** . فأوضح أن الكافر فيها منعَّم ، والمؤمن فيها مسجون، وهل يكون المسجون إلا حزينًا مصابًا ! فالأصح أن المؤمن مع الكافر في هذه الدار كأهل السجن مع السلطان .

فانظر واعتبر وتأمّل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥] ، فإذا تأمّلت هذا انشرح صدرُك لما يصيبك ، وعلمت أنه دليل على أنك من أهل الإيمان ، المقرَّبين عند الرحمن ، الذين يريد تطهيرهم من الأدناس ، ويجب تصفية قلوبهم من الوسواس. ولذلك كان السلف -رحمهم الله تعالى- يخشون تتابع النعم، ويخافون أن يكون [ذلك] استدراجًا .

وأنا قد اعتبرت ، فوجدت القاعدة المستمرة في هذه الأمة أن كل من كان أكثر إيمانًا ، كانت الدنيا عنه أكثر انزواءً ، والأكدار عنده أكثر ممن دونه ، ولذلك كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل ، وما أوذي نبيّ أكثر مما أُوذي سيد الأنبياء ، نبينا محمد ﷺ .

وأنت فانظر تر الكفار أكثر دنيا من المسلمين ، ثم انظر المسلمين تر الجُهال منهم الفسقة أكثر دنيا من أهل العلم وأهل التقوى ، ثم انظر أهل العلم والتقوى تر كل من زاد فيهما نقص في الدنيا بحسب ذلك ، وإن عددت من جُمع له العدل والمُلك ، أو العلم والمال ، أو التقوى والمال ، لم تر إلا آحادًا محصورين ، وأُناسًا كانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم ، وكان ذلك لمصحلة اقتضتها حكمة الربّ -سبحانه وتعالى- خرجوا بها عن القاعدة .

قيل للحسن البصري -رحمه الله- : أليس قد قال النبي ﷺ : " لا يزدادُ الأمر إلا شدة ، ولا الدنيا إلا إدبارًا " ، فما بال عمر بن عبد العزيز - وهو سيد أهل زمانه - وَلي بعد الحجّاج وهو خبيث هذه الأمة ! ، فقال : لابُدَّ للزمان أن يتنفّس.

فإذا علمت أن إنكاد المؤمنين طبع الزمان ، كما قال التُهَامي :

حكمُ المنيَّةِ في البرية جارِ ∴ ما هذه الدنيا بدار قرارِ

بينا ترى الإنسان فيها مخبِرًا ∴ ألفيته خبرًا من الأخبار

طُبعت على كدَرٍ ؛ وأنت تريدها ∴ صَفْوًا من الأقذاء والأكدار

ومكلّف الأيام ضِدَّ طباعها ∴ متطلِّب في الماء جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما ∴ تبني الرجاء على شفير هارِ

والعيشُ نوم والمنيّةُ يقظة ∴ والمرء بينهما خيال سارِ

فاقضُوا مآربكم عِجالاً ، إنما .·. أعماركم سَفَر من الأسفار
وتركَّضُوا خيل الشباب وبادروا .·. أن تُسترد فإنهنَّ عوار
ليس الزمان وإن حَرَصت مسالمًا .·. طبْعُ الزمان عداوة الأحرار

فما أجهل من يقول: ما بال فلان المستحق خاملاً، وفلانٍ غير المستحق غير خامل.

أمَا عَلِمَ أن هذه عادة الزمان ، وأن ذلك عدلٌ من الله تعالى : إذ كونه مستحقًّا فضل من الله عليه ، يربو ويزيد على ذلك الحُطام الذي هو حظٌّ من لا يستحقّ، أليس إذا عادل العالم بين العلم مع الفقر، والجهل مع الغنى وجد علمًا بفقر خيرًا من جهل بغنى ، وتقوى بانكسار خيرًا من فجور باستكبار ! .

أنشدنا أبو عبد الله الحافظ إجازة عن شيخ الإسلام أبي الفتح بن دقيق العيد أنه أنشد لنفسه :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها .·. أهل الفضائل مرذولون بينهمُ
قد أنزلونا لأنَّا غير جنسهم .·. منازل الوحش في الإهمال عندهمُ
فما لهم في توقّي ضرِّنا نظرٌ .·. ولا لهم في ترقّي قدرنا هِمَمُ
فليتنا لو قدَرْنا أن نعرّفهم .·. مقدارهم ، عندنا أو لو دَرَوْه هُم!
لهم مُريحان: من جهل، وفرط غنى .·. وعندنا المتعبان : العلمُ والعَدَمُ

وهذه الأبيات ناقضها أبو الفتح الثقفي فأجاد وأحسن حيث قال :

أين المراتبُ في الدنيا ورفعتُها ∴ مِنَ الذي حاز علمًا ليس عندهم؟

لا شك أنَّ لنا قـدرًا رأوه، وما ∴ لقدرهم عندنا قـدر ، ولا لهمُ

هم الوحوشُ ونحن الإنس حِكْمَتُنَا ∴ تقودُهم حيث ما شئنا وهم نَعَمُ

وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا ∴ عنهم، فإنهم وِجـدانُهـم عَـدَمُ

لنا المريحان : من علم ، ومن عَدَمٍ ∴ وفيهما المتعِبان : الجهل، والحَشَم

فإذا استقرت هذه القاعدة عندك ازددت انشراحًا بالمصيبة وتسلِّيًا عنها .

ثم ابحث تجده أيضًا بقضاء الله وقدره وإرادته واختياره ؛ وقضاؤه لك خير من قضائك لنفسك ، وكم من محنة في طيّها نعمةٌ لا يدريها إلا من يعلم العواقب، فكن مع الله كالميت بين يدي الغَاسل، واعلم أنه حينئذ لا يفعل بك إلا ما هو خير لك .

وكن كما قال الشاعر :

وقف الهوى بي حيث أنت؛ فليس لي ∴ مـتـأخَّـر عـنـه ولا مـتـقـدَّمُ

أجـد المـلامـة في هـواك لـذيـذةً ∴ حبًّا لـذكـرك فلْيلمني الـلـوَّمُ

أشبهتَ أعدائي فصرتُ أحبهم ∴ إذْ كان حظي منك حظّي منهمُ

وأهنتني فأهنتُ نفسي عامدًا ∴ ما من يهـون عليك ممَّـن يكرمُ

فإذا استقرت هذه القاعدة الأخرى عندك ازددت سرورًا على سرور ، ثم ابحث عن فوائد المحنة تلقها كثيرة ، وافهم أنها لولا المحنة لم تحصل هذه الفوائد ، فإذًا المحنة نعمة ، والبلِيَّة عطيَّة ، وعند هذا يتم انشراحك وسرورك، وتصل إلى درجة الرضا بالمقدَّر ، كما كان السلف - رحمهم الله- :

يستعذبون بلاياهم كأنهم ∴ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

ولسنا نقول ذلك حثًّا على حُبِّ البلاء ، وحبًّا له ، نعوذ بالله منه ، ولكن نقوله تسليةً لمن حلَّ به ؛ فتعريف دواء المرض لا يوجب حبَّ المرض، ولا طلبه. نسأل الله العافية ؛ فإنَّ عافيته أوسع لنا .

وإذا فهمت هذا وتأمَّلته مع قوله ﷺ : (كل قضاء الله للمؤمن خير) الحديث، وانشرحت لذلك تمَّ لك نوع من الأمور التي يرجى باعتمادها عود النعمة ، وزوال النقمة .

فإن قلت: أَينْ لي هذه الفوائد ؟ ، وعدِّدها ؛ ليتمَّ سروري .

قلت : حظ هذا الكتاب منها تنبيهك من سِنَة الغفلة ؛ فإنا قد بيَّنا لك أنك من قِبَل تفريط أُتيت ؛ فلو لم يتداركْكَ الله بلطفه ، ويزوي عنك تلك النعمة لتتذكر ، وتتنبه من منامك لبقيت طائشًا في غيِّكَ ، مُتحيرًا في طغيانك ، وذلك يئول إلى فساد حالك بالكلية ، فحلول المحنة - والحالة هذه - نعمة .

وإن أردت حصر الفوائد التي فيها فلن تجد إلى ذلك سبيلاً ، لكثرته ، وخروج بعضه عن إدراك أفهامنا ؛ فإن حِكَم الرَّب تعالى منها ما ندركه، ويُتفاوت فيه بقدر تفاوتنا في العلوم والمعارف ؛ ومنها ما تَقْصُر العقول عن إدراكه .

ولسلطان العلماء شيخ الإسلام عز الدين محمد بن عبد السلام – رحمه الله– كلامٌ على فوائد المحن والرزايا ، أنا أحكيه لك بجملته . قال –رحمه الله– : "للمصائب والبلايا ، والمحن والرزايا فوائد ، تختلف باختلاف رُتب الناس:

إحداها : معرفة عزّ الربوبية وقهرها .

والثانية : معرفة ذِلة العبودية وكَسْرها : وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة:١٥٦] ، اعترفوا بأنهم مِلكه وعبيده ، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره، وقضائه وتقديره ، لا مَفَرَّ لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى : إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد في كشفها إلا عليه ، ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾[الأنعام:١٧]، ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت :٦٥] .

الرابعة : الإنابة إلى الله والإقبال عليه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾[الزمر : ٨] .

الخامسة : التضرع والدعاء : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ﴾[الزمر : ٤٩] ، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ ﴾[الإسراء : ٦٧] ، ﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام : ٤١] ، ﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ ﴾[الأنعام : ٦٣] .

السادسة : الحلم عمّن صدرت عنه المصيبة : ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة :١١٤] ، ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾[الصافات:١٠١] ، " **إن فيك**

خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة" ، وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها ، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حِلْم .

السابعة : العفو عن جانيها : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورى : ٤٠] ، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو .

الثامنة : الصبر عليها : وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران :١٤٦] ، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، " وَمَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [(١)].

والتاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها : قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ "[(٢)] ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : حبَّذا المكروهان : الموت ، والفقر . وإنما فرحوا بها ، إذ لا وقع لشدتها ومرارتها، بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ؛ كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرُّعه لمرارتها .

العاشرة : الشكر عليها : لما تضمنته من فوائدها ؛ كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه ، المانع من شهواته ، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء .

الحادية عشر : تمحيصها للذنوب والخطايا : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، " ولا يصيب المؤمن وصَبٌ ولا نصب حتى الهمُّ يهِمُّه والشوكةُ يُشاكها إلا كَفَّر به من سيئاته" .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

الثانية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم : فالناس معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية .

وإنما يرحم العُشاق مَنَ عَشِقَا .

الثالثة عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها : فإن النِّعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الرابعة عشرة : ما أعدَّهُ الله تعالى على هذه الفوائد : من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الخامسة عشرة : ما في طيِّها من الفوائد الخفية : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء:١٩] ، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور:١١] .

ولما أخذ الجبارُ سارة من إبراهيم عليه السلام كان في تلك البلية أن أخدمها هاجر ، فولدت إسماعيل لإبراهيم – عليهما الصلاة والسلام – فكان من ذرية إسماعيل سيِّدُ المرسلين وخاتم النَّبِيين ، فأعظم بذلك من خيرٍ كان في طيِّ تلك البلية .

وقد قيل :

كم نعمة مطويَّة .·. لك بين أثناء المصائب

وقال آخر :

ربّ مبغوض كريه .·. فيه لله لطائف

السادسة عشرة : أن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر : فإن نمرود لو كان فقيرًا سقيمًا فاقد السمع والبصر لما حاجَّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ المُلك على ذلك ، وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجَّتَه بإيتائه المُلك فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة : ٧٤] ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق : ٦-٧] ، ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٢٧] ، ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ [هود : ١١٦] ، ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن:١٦-١٧] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ ﴾ [سبأ : ٣٤] . والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع السُّنَّة .

ولهذه الفوائد الجلية كان أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون الأمثل فالأمثل، نسبوا إلى الجنون والسحر والكهانة ، واستهزئ بهم ، وسُخِر منهم، فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا ، وقيل لنا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤ ﴾ [البقرة:٢١٤] ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ﴾ [البقرة:١٥٥] ، ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾

[آل عمران: ١٨٦] .

الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وتغرَّبوا عن أوطانهم ، وكثر عناؤهم

واشتد بلاؤهم ، وتكاثر أعداؤهم ، فغُلبوا في بعض المواطن ، وقُتِل منهم بأُحد وبئر معونة وغيرهما مَنْ قُتِل، وشُجَّ وجه رسول الله ﷺ ، وكُسِرَت ربَاعِيَّتُهُ، وهُشِّمت البيضةُ على رأسه ﷺ ، وقُتِل أعِزَّاؤه ، ومُثِّل بهم ، فشمت أعداؤه ، واغتمَّ أولياؤه ، وابتُلوا يوم الخندق ، وزُلزلوا زلزالاً شديدًا ، وزَاغت الأبصار، وبلغت القلوبُ الحنَاجِرَ ، وكانوا في خوف دائم ، وعُرْي لازم، وفقر مُدْقِع، حتى شدُّوا الحجارة على بطونهم من الجوع ، ولم يشبع سيِّد الأولين والآخرين من خُبز بُرٍّ في يوم مرتين ، وأوذى بأنواع الأذية حتى قذفوا أحب أهله إليه ، ثم ابتلى في آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنْسي ، ولقى ﷺ هو وأصحابه ﷺ في جيش العسرة ما لقوه ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير .

ولم تزل الأنبياء والصالحون يُتعهَّدون بالبلاء الوقت بعد الوقت ، يُبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان صُلبًا في دينه شُدّد في بلائه ، ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مَفْرقه فلا يصده ذلك عن دينه ، وقال ﷺ : "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ** " (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى ، حَتَّى تَهِيجَ** ، " (٢) .

فحالُ الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل ، وحال العافية والنَّعماء صارفة للعبد عن الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾[يونس:١٢]،

---

(١) رواه أحمد في مسنده .
(٢) رواه مسلم .

فلأجل ذلك تقلَّلوا في المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمجالس والمساكن والمراكب ، وغير ذلك ؛ ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى والإقبال عليه .

السابعة عشر:الرضا الموجب لرضوان الله تعالى: فإن المصائب تنزل بالبرِّ والفاجر؛ فمن سخطها فله السَّخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا ، والرضا أفضل من الجنة وما فيها ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] ، أي من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوى ، ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ؛ فلسنا من رجال البلوى ، وفقنا الله تعالى للعمل بما يحب ويرضى ، وبرَّأنا من المحن والرزايا .

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله ، عودًا على بدء ، ومختتمًا على مفتتح، وسلِّم تسليمًا دائمًا باقيًا إلى يوم الدين آمين .

وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

الأمر الثالث

من الأمور الثلاثة لعودة النعم بعد زوالها

التضرع إلى الله تعالى لإعادة النعمة

تكملة [(١)] الأمر الثالث

التضرع إلى الله تعالى لإعادة النعمة



قال الغزالي[(٢)] -رحمه الله : " الغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمَّةٍ ، فإن الإنسان إذا مسَّه الشر فذو دعاءٍ عريض، فالحاجة تُحوج إلى الدعاء ، والدعاء يردُّ القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة ، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات ومنتهاها، فإنه يستدعي حضور القلب مع الله -سبحانه وتعالى- .

ثم قال : ولذلك صار البلاء موكّلاً بالأنبياء - عليهم السلام- ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل ، لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ، ويمنع من نسيانه ، وأما الغنى فسببٌ للبطر في غالب الأمور ، فـ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[العلق : ٦-٧] " .

---

(١) هذه التكملة زيادة مستدركة على المؤلف ، لشرح الأمر الثالث من أمور الطريقة التي تعود بها النعم بعد زوالها ، وقد سبقت الإشارة إلى أن المؤلف لم يستكمل الكلام عن الأمر الأخير .
والأمور الثلاثة التي أجملها المؤلف في مقدمته ، ثم شرح اثنين منها فقط هي :
١- أن يعرف من أين أتى ، فيتوب ، (وقد شرحه ص ٢١-٤٥) .
٢- أن يعترف بما في المحنة من الفوائد ، فيرضي بها (وقد شرحه ص ٤٦- ٦٠) .
٣- أن يتضرع إلى الله تعالى ، وقد أشار إلى هذا في مقدمته بقوله : " ثم يتضرع إلى الله تعالى بالطريق التي نذكرها " لكنه ختم كتابه بعد شرح الأمر الثاني دون أن يذكر شيئًا عن التضرع ودوره في عودة النعمة ولا ذكر الطريقة .
وقد قال في مقدمته : " هذه ثلاثة أمور هي الطريقة التي يحصل بمجموعها دواء مرضه ... بعضها مرتب على بعض " لذا كان لابد من إلحاق هذه التكملة .
(٢) إحياء علوم الدين ، (جـ ١ ، ص ٢٧٤) .

وقال ابن تيمية [(١)] **- رحمه الله- :** من ابتلى ببلاء قلبي أزعجه فأعظم دواء له قوة الالتجاء إلى الله تعالى ، ودوام التضرع ، والدعاء بأن يتعلم الأدعية المأثورة، ويتوخي الدعاء في مكان الإجابة ، مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده ، وأدبار الصلوات ، ويضم إلى ذلك الاستغفار وليتخذ وردًا من الأذكار طرفي النهار وعند النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لابد أن يؤيده الله بروح منه ، ويكتب الإيمان في قلبه، وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس بباطنه وظاهره ، فإنها عمود الدين ، وليكن هجيراه " **لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** " فإنه بها يحمل الأثقال ويكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال ، ولا يسأم من الدعاء والطلب ، فإن العبد يُستجاب له ما لم يعجل ، وليعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، ولم ينل أحد شيئًا من عميم الخير إلا بالصبر .

زوال النعمة يستتبع الضر:

مما يتصل بموضوع التضرع إلى الله تعالى لإعادة النعمة أن زوال النعمة غالبًا يعقبه المصيبة والضرّ ، فزوال الصحة والعافية يعقبة المرض ، وزوال الغني يعقبه الفقر ... وهكذا . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَ

ويشير إلى ذلك حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: **"اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ "** [(٢)].

---

(١) نقلاً من كتاب طريق الوصول لابن سعدي " مختارات من كتب ابن تيمية " (ص ١٩٠) .
(٢)أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وأحمد في الزهد .

على أنه قد تزول النعمة ويصير حال الإنسان إلى الكفاف أو الستر والسلامة، وهذا فضل من الله عز وجل ، وهذا مما يقتضي الشكر على المصيبة - كما قالوا- من حيث إن مصيبته بزوال النعمة فقط أخف من مصيبة غيره بزوالها وحلول النقمة والبلاء والضر .

ولهذا تعتبر الأدعية التي فيها سؤال كشف الضر عن الإنسان ، وصرف السوء عنه مندرجة في الأمر الثالث الذي هو التضرع إلى الله لإعادة النعمة ، لأن حال الستر والكفاف والمعافاة من البلاء هي نعمة أيضًا : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

الدعاء والتضرع فيه :

لقد ورد في الحث على الدعاء آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة :١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر : ٦٠] .

كما وردت فيه أحاديث عديدة ، منها قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : **"الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ "** [(١)].

والتضرع في الدعاء هو الخشوع والذل والاستكانة فيه ، وهي - كما قال القرطبي- صفات تحسن في الدعاء ، كما يحسن الإسرار به ، ولذا قرن سبحانه هذه الصفات بالأمر بالدعاء في قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه العراقي .

﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف : ٥٥] .

والخفية هي الإسرار ، قال القرطبي : الشريعة مقررة أن السر فيما لم يفترض من أعمال البر أعظم أجرًا من الجهر ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه زكريا - عليه السلام - إذ أخبر عنه بقوله : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم : ٣]، قال الحسن البصري : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم .

والتضرع هو الذل والخضوع ، وبمعناه : الابتهال .

وقال القرطبي : الدعاء مطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل والتذلل له والخضوع .

والخوف في قوله تعالى :﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي في حالة ترقب وتخوف، والدعاء طمعًا : أي في حالة تأميل لله عز وجل ، فيدعو الإنسان خوفًا من عقاب الله ، وطمعًا في ثوابه، قال الله عز وجل : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ والدعاء الرغب : أي بما هو محبوب ، والدعاء رهبًا: أي بزوال ما هو مكروه، والطمع توقع المحبوب ، أما الخوف فهو الانزعاج لما لا يؤمن من المضار.

وجاء في التضرع بعض الأحاديث - على ضعفها - تربط بينه وبين البلاء أو زوال النعمة ، منها حديث أَنَس بْن مَالك رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلاءَ صَبًّا حَتَّى يَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ** " ، وَفي حَديث أَبي أُمَامَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ : " **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلائكَة : انْطَلقُوا إِلَى عَبْدِي ، فَصُبُّوا عَلَيْهِ الْبَلاءَ صَبًّا ، فَيَأْتُونَهُ ، فَيَصُبُّونَ عَلَيْهِ الْبَلاءَ ، فَيَحْمَدُ**

اللهَ، فَيَرْجِعُونَ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا صَبَبْنَا عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا ، كَمَا أَمَرْتَنَا ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ" .

آداب الدعاء :

من آداب الدعاء كما قال الغزالي -رحمه الله- في الإحياء وغيره :

* أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السَنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السَّحر من ساعات الليل .

* وأن يغتنم الأحوال الشريفة ، كحالة زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، وخلفها ، وبين الأذان والإقامة ، وفي حالة الصيام ، وحالة السجود .

قال الغزالي -رحمه الله - : وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضًا ، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار الرحمة ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات ، سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها .

* وأن يغتنم الأماكن الشريفة ، كالمسجد الحرام ونحوه .

* وأن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ، فلا يبدأ بالسؤال وأن يختم بالصلاة على النبي ﷺ .

* والتوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكُنْه الهمة – كام قال الغزالي– فذلك هو السبب القريب في الإجابة .

* وإطابة الإنسان مطعمه وملبسه فذلك من الأسباب التي يرجى بها إجابة الدعاء كما جاء في الحديث : " **أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَاب الدَّعْوَة** " .

* واستقبال القبلة ، ورفع اليدين وليسا في رتبة آداب الدعاء الأخرى ، كما قال القرطبي .

* أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ، ويصدق رجاؤه فيه ، ففي الحديث : "**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ**" ، وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة .

الاعتداء في الدعاء :

قال الله تعالى بعد أن أمر بالدعاء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ومن الاعتداء في الدعاء ما يلي :

* الجهر الكثير والصياح ، وهو ينافي (الخفية) المستحبة في الدعاء .

* أن يدعو الإنسان بما فيه شطط ، كالمستحيل بحسب ما وضع الله في الكون من سُنن ، وهذا إذا لم يصل الإنسان إلى حالة يرجو فيها خرق هذه السُنن ، وإنما طلب في حال السعة ما فيه تجاوز للحد .

* أن يدعو طالبًا ما هو معصية .

* أن يدعو بما ليس في الكتاب والسُّنَّة ، كمن يتخير ألفاظًا مقفَّاةً وكلمات مسجوعة لا أصل لها ، ولا معوَّل عليها ، فيجعلها شعاره ، ويترك ما دعا به رسول الله ﷺ ، فهذا هو المذموم ، وليس مجرد الدعاء بما ليس مأثورًا ، إذا لم يتخذ ذلك شعارًا ويهجر المأثور .

قال الغزالي - رحمه الله - : والسجع المذموم هو المتكلف من الكلام ، فإنه لا

يلائم الضراعة والذلة ، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ ، كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة ، فليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع ولا تكلف ، فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل " .

قال بعضهم : ادعُ بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والانطلاق ، والمراد : الفصاحة المجتلبة لأنها تشغل عن جوهر الدعاء .

علاقة الدعاء بالقضاء :

طرح الغزالي إشكالاً بشأن نفع الدعاء مع سبق القضاء فقال : " فإن قلت: ما فائدة الدعاء والقضاء لا مردَّ له ؟ " ، وفي موضوعنا هذا : ما فائدة الدعاء بعود النعمة إذا كان مقضيًّا زوالها وعدم عودتها ؟ ، ثم أجاب الغزالي –رحمه الله – بقوله :" فاعلم أن من القضاء ردّ البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان .

وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح ، وقد قال الله تعالى: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر ، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر ، وإن لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الأسباب بالمسبباب هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب ، وترتيب تفاصيل المسبَّبات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر ، والذي قدَّر الخير قدَّر سببه ، والذي قدَّر الشر قدَّر لرفعه سببًا فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته" .

الأدعية المناسبة لاستعادة النعمة :

هناك أدعية مأثورة عن النبي ﷺ تتعلق بالنعم ، منها :

* " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نَقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سُخْطِكَ " (١) .

* " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ " (٢).

* " يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ " (٣).

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِك قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ " .

* " اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ " (٤).

* " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " ، وعَنْ أَنَس بْنِ مَالِك أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ ؟، قَالَ : " سَلْ رَبَّكَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " (٥).

* " اللَّهُمَّ فَالِقَ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .
(٣) أخرجه الترمذي .
(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .
(٥) أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه .

اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ وَأَمْتِعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي وَقُوَّتِي فِي سَبِيلِكَ " (١).

* " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ " (٢).

* " عَنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَلْ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " (٣) .

* " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ : قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ : لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَامَ بِهِ فِيكُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ أَوَّلَ فِي مَقَامِي هَذَا ، ثُمَّ أَعَادَهَا ، ثُمَّ بَكَى ، ثُمَّ أَعَادَهَا ، ثُمَّ بَكَى ، فَقَالَ : " إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطَوْا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الْعَفْوِ وَالْعَافِيَةِ ، فَسَلُوهُمَا " (٤).



(١) أخرجه مالك مرسلاً من حديث يحيى بن سعيد مرفوعًا .
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعًا .
(٣) أخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي والمنذري .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا ورجال إسناده ثقات ، كما قال الغماري (الأربعون الغمارية ٤٢) .

قائمة المراجـع



١- تفسير القرطبي .

٢- صحيح البخاري .

٣- صحيح مسلم .

٤- سُنن أبي داود .

٥- سُنن الترمذي .

٦- سُنن النسائي .

٧- سُنن ابن ماجه .

٨- موطأ الإمام مالك .

٩- مسند أحمد .

١٠- المستدرك ، للحاكم .

١١- مسند ابن منيع .

١٢- شعب الإيمان ، للبيهقي .

١٣- الأربعين الغمارية في الشكر .

١٤- الزهد ، للإمام أحمد .

١٥- الترغيب والترهيب ، للمندري .

١٦- الرسالة في أصول الفقه ، للشافعي .

١٧- منثور النظم البهائي ، للنيرماني .

١٨- المواهب المدخرة في خواتيم سورة البقرة ، لابن أبي شريف .

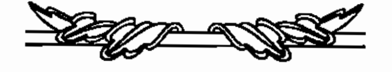
١٩- إحياء علوم الدين للغزالي .

٢٠- الأذكار ، للنووي .

٢١- رياض الصالحين ، للنووي .

٢٢- قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للعز بن عبد السلام .

٢٣- طريق الوصول ، لابن سعدي .



فهرس



من أحدث إصدارات دار الإيمان

دفء المشاعر في الحياة الزوجية

تأليف

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه



